

بعد أن فُدت اللغة اليونانية سيادتها أصبحت اللغة العربية :

لغة سميت للعالم والثقافة

د. سنان عبد الفادر الحياوي

مدير تفتيش الآثار والمتاحف
في الجمهورية العربية السورية

3 - نلاحظ بأنه لم يكن بين بلدان العالم العربي المعروفة اليوم من كان عربيا صرفا قبل انتشار الاسلام سوى الجزيرة العربية ، وكانت بلاد الشام تقطنها بعض القبائل العربية الموزعة في نواح مختلفة فيها ، وهي قبائل نازحة من الجزيرة العربية منذ امد غير بعيد ، بينما كان سكان المدن القدماء من بقايا الشعوب التي عرفت بالسامية والتي هاجرت هي ايضا من الجزيرة العربية ، كما يرجع أكثر العلماء أن دفعات حدثت في الالف الرابع والثالث والثاني قبل الميلاد ، وكانت لغاتها تعتبر من اللغات السامية او على الاصح من اللغات العربية البائدة ، كالآرامية والنبطية والفينيقية والاكادية. ولقد أدى الاسلام الى زوال هذه اللغات القديمة ، او اللهجات العربية القديمة ، كما نفضل القول ، الى احلال لغة القرآن لغة رسمية للعلم والثقافة محل اللغة اليونانية التي كانت هي اللغة الرسمية ولغة الثقافة في الشام قبل الفتح . ان ما قلناه عن الشام يمكن ان يقال عن العراق ، الذي كان محاطا بمراكز وامارات عربية مما جعل المؤرخين العرب يميزون بين عراقيين : عراق العرق وعراق العجم .

اما استعراب باقي البلدان العربية كمراق العجم وبلدان شمالي افريقيا (مصر - السودان - تونس - الجزائر - المغرب) ففي رأيي ان ذلك حدث تدريجيا وكانت مقومات هذا الاستعراب ثلاثة امور :

الاول : انتشار الاسلام وهو كدين عربي في كل مظهره ومصادره .

1 - من الطبيعي جدا ان يكون هناك تلازم وارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية اذ لولا الاسلام لما اتيح للفتنا العربية ان تنتشر فيما وراء العالم العربي بل حتى في بعض اقطاره .

2 - اذا كان انتشار اللغة العربية مرتبطا بانتشار الاسلام فان العكس غير صحيح وبمعنى آخر لا يمكننا القول بأنه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

فلاسلام كعقيدة ودستور ومبادئ واخلاق جدير بالانتشار في المجتمعات البشرية على اختلاف ألوانها ولغتها ، وليس لزاما لهذه المثل والعقائد لكي يتقبلها الناس أن تكون منزلة بلغة معينة او باللغة العربية ذاتها، لا سيما ان الاسلام لم يأت للعرب وحدهم وانما للعالمين جميعا . ولكن بما ان القرآن نزل بلغة العرب وان الله اصطفى رسوله عليه السلام من العرب فقد أصبح اللغة العربية شأن آخر يميزها عن اللغات الاخرى وأصبح لزاما على العرب ان يعتنوا بلغتهم لكي يفهموا معاني القرآن ومبادئ الاسلام ولزاما كذلك على المسلمين من غير العرب ان يتعلموا اللغة العربية لكي يفهموا الاسلام المتمثل بالقرآن وهو بلسان عربي، وبسنة الرسول من اقوال وافعال ، والرسول عربي . وفلا فقد أقبل على تعلم العربية في صدر الاسلام وما بعده كل من ضح اسلامه وحسن أيمانه من أبناء الشعوب غير العربية .

الانتشار ، ويمكن القول بأن تأثير الفكر الاسلامي كان يظهر في اللغات المحلية والاقليمية على الشكل التالي :

١ - اقبال فئة ممن حسن اسلامهم على تعلم اللغة العربية لغة الدين والعقيدة كي تساعدتهم على فهم القرآن والحديث وما يتصل بهما من كتب السيرة والتفسير . وبذلك نشأت طبقة المتعلمين والعلماء التي اتقن أفرادها اللغة العربية اتقان أهلها لها .

ب - في المهود التاريخية التي كان الحكم فيها عربيا صرفا كانت هذه البلدان تتأثر بالحكم العربي وكانت اللغة العربية لغة الحكام والموظفين أو بعبارة أخرى لغة السلطة الحاكمة التي يحرص على اجادتها الكثيرون من المتعلمين فضلا عن كونها لغة الدين الامر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية وطفيلاتها على اللغات المحلية واضعافها لها وادخال كثير من الالفاظ العربية في بنيتها مما لا يزال باقيا حتى اليوم في هذه اللغات .

ولكن ضعف الحكم العربي في هذه البلدان ، الذي بدأ يظهر في العهد العباسي الثاني وقيام دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية تحكمها أسر حاكمة محلية غير عربية أدى الى انحسار نفوذ اللغة العربية تدريجيا .

6 - ان تأثير اللهجات المحلية أو اللغة العامية في سورية أو في بلاد الشام ضئيل . ويخف هذا التأثير كلما زادت العناية باللغة الفصحى وبسلامة التعبير بها لدى الافراد والاطراف المثقفة .

7 - لا جدال ان المكاة التي يجب أن تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية هي المكاة الاولى فهي لغة الكتابة ولغة التخاطب ولغة العلم في كل فروعه ومستوياته ، وتأتي اللغات الاجنبية بالدرجة الثانية بل يجب أن تأتي مكانتها واستعمالها بعد اللغة العربية في كل مكان ، في البيت وفي العمل الحكومي وغير الحكومي وفي نواحي التعليم المختلفة، وحتى في المدارس الاجنبية. وهذا مطبق فعلا عندنا في سورية ، ويجب أن يطبق في كل بلد عربي . اما اللغات الاجنبية كلفة ثانية ففروقتها من أجل الاطلاع على مصادر المعرفة الاجنبية والبقاء على صلة بما يجد في العالم الخارجي ، في نواحي العلم والتقنية ولاستخدامها أداة لا غنى عنها في التعامل والتفاهم مع العالم الخارجي غير العربي .

الثاني : كون اللغة العربية لغة الحكام اذن فهي اللغة الرسمية السائدة .

الثالث : استيطان كثير من القبائل العربية وتمازجها مع سكان البلاد الاصليين .

وهناك عامل رابع قد يكون اقل شأنًا الا ان اثره لا ينكر في هذا الاستعراب الا وهو وجود جاليات وعناصر من اصل عربي قديم في كل من مصر وشمال افريقيا ترجع الى هجرات الفينيقيين واقامتهم جاليات على طول ساحل شمال افريقيا في الالف الاولى قبل الميلاد. ولا ننسى هنا دولة قرطاجة الشهيرة التي اقامها الفينيقيون السوريون في وسط افريقيا الشمالية .

اما انتشار اللغة العربية في بلدان العالم الاسلامي الاخرى فكان ضعيفا محدودا . فقد ظلت هذه الشعوب تحتفظ بلغاتها القديمة رغم دخولها في الاسلام ، وان تعلم اللغة العربية لم يتح لغير نفر قليل منهم ينحصر في طلاب العلم وفي العلماء والموظفين ذوي الصلة بالحكم الفاتحين .

4 - لا اعتقد بان الوعي الاسلامي والوازع الديني لهما صلة بضعف اللغة العربية وقوتها . ان العكس هو الصحيح واكبر مثال على ذلك شعوب شمال افريقيا. فقد كان تمسكها بدينها هو الذي حال دون القضاء على اللغة العربية فيها رغم الجهود الجبارة التي بذلها المستعمر من اجل القضاء على عروبة هذا الجزء من العالم العربي ، كما هو معروف . وفي الهند وباكستان وغيرها نجد بيئات اسلامية تتمسك بدينها وتمتنع بوعي اسلامي ووازع ديني دون أن يكون للغة العربية تأثير على هذا الحماس الديني ، بينما نجد بيئات عربية صرفا في سورية ولبنان ، اللغة العربية فيها على احسن ما تكون عناية وقوة ، ولكن الكثيرين من ابناءهما مع ذلك ابعد ما يكونون عن الوعي الاسلامي والوازع الديني ومع ذلك فاننا لا ننكر بان قوة اللغة العربية وسلامتها في اية بيئة اسلامية تساعد كثيرا على فهم الاسلام والتمسك منه والتمسك به عن وعي وعمق . لان الاسلام كما ذكرت دين عربي بمظاهره ومصادره .

5 - اشرت الى الكيفية التي انتشرت بها اللغة العربية في البلدان الاسلامية غير العربية والى مدى هذا